ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق (1800-1807).

أة. زينب جعني*

مقدمة: أطلّ القرن التاسع عشر الميلادي على اندلاع أكبر وأخطر ثورة شعبية ضد السلطة العثمانية في أيالة الجزائر منذ مجيئهم إليها، ألا وهي الثورة التي قادتها الطريقة الدرقاوية[1] التي تعد من أهم الطرق الصوفية في المغرب الأقصى والتي امتدت بعد ذلك إلى الجزائر، حيث أسست زوايا تابعة لها خاصة في الأرياف حتى تكون بعيدة عن مركز السلطة المركزية بدار السلطان، واستغل دعاة الطريقة الدرقاوية وضع الجزائريين المتردي فازدادت شعبيتهم عندهم، وفي الشرق الجزائري[2] أعلنت الثورة بقيادة ابن الأحرش (1800-1807م) الذي أصبح يشتكي إليه الجزائريون ظلم واستبداد النظام العثماني. فمن هو ابن الأحرش؟ وما هي ظروف وأسباب ثورته؟ وما مراحلها؟ وما هي آثارها على البلاد والعباد؟

1- التعريف بان الأحرش: هو الشيخ الحاج محمد بن عبد الله بن الأحرش المعروف بالبودالي نسبة إلى أبدال الصالحين، وعرف عند البعض بالشريف المغربي[3]، وقد ذكر عنه بأنّه فتى مغربي مالكي المذهب درقاوي الطريقة درعي النسب[4]، وذكر الأستاذ نصر الدين سعيدوني أنّ انتسابه إلى المغرب لا يعني أنه فعلا من المغرب، بل جرت العادة في هذه الفترة على أن كل غريب يدّعي النسب الشريف إلى الأدارسة بالمغرب الأقصى. وقد دعا إلى الطريقة الدرقاوية التي كانت بمثابة حركة ثورية، وغالبا ما ينسب نفسه إلى الساقية الحمراء أو منطقة السوس، وهذا حتى يكسب هيبة ومكانة لدى العامة[5].

ويقال إنّ ابن الأحرش في مقتبل عمره كان شابا طويل القامة، أشقر اللحية يتمتع بصحة جيدة وبفصاحة اللسان وسعة أفقه وشجاعته[6]. وقد سار إلى الحج وعند عودته مرّ بمصر التي تعرضت للحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت سنة 1798م آنذاك، فأبلى بلاء حسنا حيث كان على رأس جيش من المغاربة المقاوم للفرنسيين مع إخوانهم المصريين، فكسب شهرة كبيرة. وبعد انسحاب الفرنسيين من مصر رجع مع جماعة من الحجاج فنزل تونس ثم إلى قسنطينة التي مكث فيها ومنها توجه إلى جيجل[7] التي بدأ فيها بتجهيز السفن حيث استطاع الاستيلاء على سفينة صيد المرجان التابعة للشركات الفرنسية بالقالة في جوان 1803م[8]، وبهذه الطريقة استطاع التقرب من مريدي ومرابطي الطريقة الدرقاوية[9] فعمل على نشر تعاليمها.

وأهم ما ميز ابن الاحرش أنّه كان صاحب شعوذة وحيل ما جعل الناس يتبعونه ويناصرونه لما شاهدوا عنده من علوم خارقة ظنا منهم أن ذلك من الأسرار الإلهية[10] حيث وصفه المزاري بقوله: "فرأت منه الناس العجائب والغرائب، وتدافعوا لمساندته ومبايعته خاصة أنّه ادعى أنّه المهدي المنتظر"[11]، وذكر

* أستاذة مساعدة في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة غرداية.

العنتري: "أنّ ابن الأحرش زعم أنّه كان صاحب الوقت، وأنّ دعوته مستجابة والنصر يتبعه حيثما يتوجه"[12] لذلك صدقته القبائل وهو ماساعده على توسيع نفوذه بسرعة.

2- ظروف وأسباب ثورة ابن الأحرش:

1- ظروف قيامها: اندلعت ثورة ابن الأحرش في ظروف دولية ومحلية يمكن إيجازها في مايلي:

أولا: توتر العلاقات بين تونس والجزائر في ذلك الوقت، ولهذا عمل حمودة باشا الحسيني باي تونس (1756-1814م) على تحريض ابن الأحرش على الثورة لما التقاه عندما كان راجعا من مصر حيث قام بإكرامه وحرّضه ضد السلطة العثمانية فقبل ابن الأحرش العرض، ويؤكد محمد الأمير في تحفة الزائر ذلك حيث يقول: "فعندما كان ابن الأحرش راجعا من مصر ولقيه حمودة باشا، قام هذا الأخير بإكرام مترلته، وفاوضه في القيام على حكومة الجزائر، ووعده بالمظاهرة بالمال فاستكان له ابن الأحرش"[13].

وهذا حتى يخلق الصعوبات والمشاكل لداي الجزئر، ويشغله وبالتالي يتملص من دفع التزامه المالي، إذ يذكر أحمد الشريف الزهار: "كانت عند حكومة باشا دسيسة في خاطره على ملوك الجزائر، و لم يظهر لهم ذلك خوفا منهم والتزاما لوصية أبيه علي باي عندما حضرته الوفاة، وكان يساعدهم ويعطيهم السنوية التي التزمها لهم"[14].

ثانيا: حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1213ه/1798م، ووقوف المغاربة ضدها وعلى رأسهم ابن الأحرش، مما جعله ينقم على العثمانيين الذين منحوا فرنسا امتيازات صيد المرجان في الجزائر.

ثالثا: المنافسة الانجليزية الفرنسية من أجل الحصول على امتيازات في الجزائر وحظوة فرنسا لدى الداي، مما جعل الانجليز يحرضون ابن الاحرش للثورة لإثارة القلاقل ضد العثمانيين في الجزائر[15] وذلك بقيادة الداي مصطفى[16] بسبب طبيعة علاقته مع فرنسا[17]، خاصة بعدما قدّم الإنجليز لابن الأحرش عددا من السفن لنقل الحجاج المغاربة إلى بلادهم، وأغروه بالهدايا والأسلحة للثورة ضد العثمانيين، وهذا من أجل القضاء على المصالح الفرنسية بالجزائر بسبب التنافس مع فرنسا التي تمكنت من الحصول على العديد من الامتيازات داخل الجزائر في التجارة وصيد المرجان في السواحل الشرقية للجزائر[18].

رابعا: انتشار الطريقة الدرقاوية في الجزائر في هذه الفترة التي استقطبت عددا من العلماء الذين أصبحوا من مريديها، فتوسع نطاقها بزيادة الزوايا والمريدين التابعين لها، وتعد الثورة الدرقاوية من أكبر وأخطر الثورات التي شهدها العثمانيون منذ بداية تواجدهم بالجزائر، حيث كانت هذه الطريقة تتلقى الدعم من المغرب الذي لعب دورا هاما أثناءها.

خامسا: دعم ومؤازرة وتأييد سلطان المغرب مولاي سليمان أتباع الطريقة الدرقاوية للوقوف ضد الحكام العثمانيين في الجزائر[19].

سادسا: تحول النظام العثماني في الجزائر إلى جهاز لجمع الضرائب من السكان بسبب تدهور الوضع السياسي والاقتصادي بعد تراجع مداخيل القرصنة[20]، وتكالب الدول الأوربية على ممتلكات الدولة العثمانية، ما أدّى إلى تذمر السكان وبداية الصراع بين الطرق الصوفية والسلطة الحاكمة التي تراجعت مداخيلها حيث تحولت إلى خزينة السلطة[21].

فطالبت المرابطين والطرق الصوفية وشيوخ القبائل بالتخلي عن جزء من امتيازاتهم ولكنهم رفضوا ما جعل السلطة تشن حملات لتأديبهم، فتمردوا وحرضوا السكان ضدهم، ولهذا تغيرت سياسة العثمانيين تجاه الزوايا بعد أن كانت تحاول كسب ودّهم وتأييدهم أصبحت تحاول إخضاعهم لإجبارهم على دفع الضرائب، وهو السبب الذي أدى إلى حدوث نوع من القطيعة بين الزوايا وأتباعها، وبين السلطة التي حاول موظفو البايات تطبيقها دون مراعاة للأوضاع الصعبة التي كان يعاني منها سكان الريف، وهذا ما دفعهم إلى إعلان العصيان والوقوف في وجه ما كانوا يعتبرونه ظلما وتعسفا[22].

سابعا: فساد النظام العثماني وانعزاله عن الرعية والمجتمع، حيث اعتبر نفسه سيدا ووضع حاجزا بينه وبين السكان، إذ عمل العثمانيون منذ مجيئهم إلى الجزائر على إبقاء الأهالي بعيدين عن أية مساهمة جدية في شؤون الحكم، فكان نظاما سياسيا جمهوريا عسكريا مغلقا[23]، فهو جمهوري لأن منصب الحاكم انتخابي وليس وراثي، وهو عسكري لأن الحاكم من العسكريين، وهو مغلق لأنه نظام لا يسمح فيه إلا للوجق بممارسة السلطة، تنتقل السلطة فيه من حاكم إلى آخر بالعنف، وهي الصبغة التي طغت على النظم الإدارية في حكمهم.

ثامنا: تعرض الأيالة الجزائرية للعديد من الكوارث الطبيعية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر،كالزلازل إلى جانب انتشار الأوبئة والفقر والمجاعة.

2- أسباب اندلاعها: يمكن حصر الأسباب التي أدت إلى قيام ابن الأحرش بالثورة ضد السلطة العثمانية في بايلك الشرق إلى ما يلي:

أولا: السياسة المجحفة التي انتهجها بعض الحكام حيث تميزوا بالاستبداد والقتل والتدمير وتبذير الأموال وإشباع الرغبات والاهتمام بالمصالح الخاصة وإهمال شؤون الرعايا، وعن هذا يقول العنتري: "الأتراك في بدء أمرهم عدلوا بين الناس و لم يظلموا أحدا، وحين تمكنوا صاروا يظلمون الناس، ويسفكون دماءهم، ويأخذون أموالهم بغير حق، ويعدون ولا يفون، ويؤمنون ويغدرون، لم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز الحد"[24].

ثانيا: الأزمة الحادة التي مرّ بها الإقتصاد الجزائري؛ حيث تضاعف تأثيرها بتوالي سنوات القحط الذي عمّ مختلف جهات البلاد، بسبب الكوارث الطبيعية، والتي أثّرت بشكل حاد على الأوضاع المالية، وكذا على القدرة الشرائية للسكان حيث وصف محمد بن يوسف الزياني الوضع بـــ"غلاء الأسعار وكثرة الفساد والعوابث وفناء الأعمار"[25]، ونظرا لانخفاض الموارد المالية توجه اهتمام الحكام نحو الداخل من أجل توفير

احتياجاتهم المالية، إذ اتبع العثمانيون سياسة ضريبية مجحفة، حيث كانوا حريصين على الانتفاع بنظام جبائي عملوا من خلاله على الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الأموال لذلك حاولوا إيجاد مصادر بديلة، فطالب الدايات البايات بمصادر بديلة، فلم يجد هؤلاء إلا مضاعفة الضرائب وإخضاع القبائل الخارجة عن سلطتهم، وانتشر السخط بين السكان لعجزهم عن دفع الضرائب فلجأوا إلى الثورات[26].

ثالثا: حرص ابن الأحرش على تطبيق العدل والمساواة بين جميع الناس، والوقوف ضد التمييز العنصري الذي طبقه العثمانيون في تواطئهم مع التجار الأروبيين واليهود[27] خاصة في بايلك الشرق، ما أدى إلى تجنيد السكان في الثورة ضد العثمانيين[28].

رابعا: تبني ابن الأحرش للطريقة الدرقاوية ونشر تعاليمها في الشرق الجزائري، وازدياد نفوذه وشعبيته والتفاف السكان حوله حيث رأوا فيه منقذهم.

خامسا: ضعف شخصية باي قسنطينة عثمان الذي حكم من سنة 1803 إلى 1804م، إذ يذكر المزاري في طلوع سعد السعود أنه "كان غارقا في اللهو وعدم الاكتراث واللامبالاة بشؤون الرعية"[29].

ثالثا: مراحل ثورة بن الأحرش:

1ـــــ مرحلة الإعداد والتحضير: بعد أن استقر ابن الأحرش في زاوية الزيتون في جيجل أسس معهدا دينيا ببني فرقان لتعليم العلوم الدينية، وفيه كشف عن خطته للثورة ضد الحكم العثماني، فعمل على إثارة السكان واستطاع جلب عدد كبير من الأنصار، حيث عملت الحركة الدرقاوية التي تزعمها في الشرق الجزائري على تحقيق تجانس بين القبائل التي انضمت إليها الواحدة تلوى الأخرى من أجل التخلص من ثقل العثمانيين في البايلك، وقد انضم إليها حتى المرابطون الأحرار وأصبحوا أتباعا لها لا يعملون إلا لصالحها، وهذا ما يفسر الإلتفاف الواسع للناس حول ابن الأحرش الذي استطاع أن يشكّل لنفسه منطقة نفوذ واسعة، كما استطاع التحكم في جمع الضرائب بها، وحصل على دعم ومساندة أكبر وأهم القبائل[30]. وكوّن جيشا كبيرا يزيد عن عشرة آلاف رجل ومن القبائل التي ساندته مثل أولاد عبدون وبني مسلم وبني حطاب العنتري، وهناك من قال بأنّ تعداد جيشه بلغ ستين ألفا[31]، وكان لنسبه الشريف دور في التفاف القبائل حوله[32]، بالإضافة إلى تحالف المرابطين من أمثال عبد الله الزبوشي، وهذا ما أضفى على ثورته الطابع المقدس خاصة بعدما ظهرت كرامات لابن الأحرش.

ومما زاد من شعبيته لجوءه إلى إقناع الناس بصحة وشرعية دعوته باعتماده مختلف الوسائل، حيث ادّعى أنه المهدي المنتظر وصاحب الوقت، وهو المنقذ لهم، وبواسطته سيمكّنهم الله من العثمانيين[33]، وبحصوله على الدعم والتأييد أعلن الجهاد في الفترة الممتدة من ربيع الأول إلى ربيع الثاني 1219ه/10-6 إلى 20-7- 1804م للقضاء على سلطة بايلك الشرق، وتأسيس حكومة تقوم على المبادئ الإسلامية[34]، وطالب أتباعه بمهاجمة الحاميات التركية، واكتسب بذلك احترام الكثير من سكان المناطق الجبلية الواقعة

بين جيجل والقل وميلة، وأصبحت كلمته مطاعة عند قبائل الوادي الكبير وجبال رواغة وناحية وادي زهور[35]، خاصة بعدما أعلن الجهاد ضد الفرنسيين، حيث كان يمارس القرصنة بجيجل، ولهذا الغرض سلّح عدة سفن بميناء جيجل لمراقبة السفن الفرنسية المترددة على سواحل القل وجيجل لصيد المرجان والتجارة، وقد تمكنت إحدى سفنه في صفر 1218ه/جوان 1803م من الاستيلاء على إحدى السفن الفرنسية وقتل بعض بحارتها وأسر أربعة وثلاثين منهم[36]، فقامت السلطة العثمانية بالرد على ذلك، حيث أرسل الداي مصطفى مراكب رست في مرسى الزيتون شرق وادي الزهور لكنها لم تتمكن من إلقاء القبض على ابن الأحرش فعادت أدراجها[37].

2ـــــ مرحلة المقاومة والانتصار: بعد أن عزّز ابن الأحرش موقعه العسكري، وتمكن من أغلب مدن بايلك الشرق، حيث استولى على القل ثم عنابة التي انسحبت منها الحامية العثمانية إلى قسنطينة، ووجّه أنظاره إلى عاصمة بايلك الشرق قسنطينة فحاصرها سنة 1219ه/1804م، وبخصوص حجم الجيش الذي حاصر المدينة، فهناك من يذكر عشرة آلاف مقاتل[38] ومنهم من يقدره مابين ستين ألف[39]حيث كان الباي في هذه الفترة خارج المدينة يجمع الضرائب بنواحي سطيف.

وأثناء حصار ابن الأحرش لقسنطينة خاطب أحد أتباعه سكانها بما يلي: "يا أهل البلد هذا الشريف قدم إليكم، ونحن قدمنا معه في جنود كبيرة وجيوش عريضة، لا تقدروا على مقاتلتنا ولا تنجوا إن فررتم منا، فإن أسلمتم لنا البلاد فلا حرج عليكم، وإن امتنعتم نقاتلكم وندخلوا البلاد بقوتنا"[40]، إلا أنّ جيش ابن الأحرش فشل في اقتحام المدينة بسبب قوة مدافعها وانشغال جيشه بجمع الغنائم ونهب الاسطبلات، مما أوقع فوضى بين صفوفهم[41].

اضطرّ ابن الأحرش إلى الانسحاب أمام تحالف أهالي مدينة قسنطينة وأعيانها الذين تصدوا له بقيادة كل من الحاج أحمد الأبيض، وقائد الدار الشيخ سيدي أحمد الفكون الذين حالوا دون سقوط المدينة[42]حيث خرج أحمد بن الأبيض ومعه ألف مقاتل فالتقى الجمعان في عقبة الصمارة، وقتل من جيش ابن الأحرش نحو مائتي رجل منهم وأصيب ابن الأحرش نفسه بجرح فانسحب أصحابه وحملوه، ورجع سكان مدينة قسنطينة وتحصنوا بسورها[43].

ولما رجع الباي عثمان إلى قسنطينة، أرسل له داي الجزائر مصطفى باشا تهديدا: "لقد عينتك بايا على المقاطعة التي ظهر فيها الشريف فمن الواجب عليك أن تلاحقه وتقضي عليه، وإني أضعك بين أمرين لا ثالث لهما: رأسك أو رأس ابن الأحرش"، لهذا كان على الباي عثمان تجهيز قوة تتكون من أربعة آلاف مقاتل من الإنكشارية ومن الزواوة المشاة و3500 فارس من قبائل دريد والتلاغمة وأولاد عبد النور والزمول وأولاد عنان وريغة وسطيف، واصطحب معه أربعة مدافع، وتوجه الباي في جمادى الأولى(أوت 1804م) من قسنطينة نحو وادي الزهور[44].

فلما وصل عثمان باي إلى المكان المقصود "نزل في أرض هناك بين الجبال، وخيّمت المحلة وابتدأ القتال مع ابن الأحرش ومن معه من القبائل"[45]، وكانت هزيمة كبرى، فاستقر الباي في أرض منخفضة ومضيق وعر امتلأ بالماء بعد سقوط الأمطار مما جعل الباي يهرب[46]، حيث يذكر العنتري: "فلما أراد عثمان باي الرجوع على أعقابه لم يجد سبيلا ولا مسلكا لرجوعه، وانقطع بعساكره وجنوده، وصار في الهلاك والهوان...؛ فلما شاهدوهم القبائل في حالة الغرق وحلت بهم الندامة والقلق، بادروا إليهم في الحال وقتلوا الباي المذكور...، وقتلوا من ذلك العساكر والجيوش... وما نجى إلا القليل منهم...، واستولوا القبائل على ذلك الأمحال... وما فيهم من الأموال والسلاح"[47]؛ فاغتنم عبد الله الزبوشي الذي ناصر ابن الأحرش وكان يحقد على الباي الفرصة فطعنه بسيفه وقتل معه خمسمائة جندي وثلاثة من نوابه[48].

ولما بلغ السلطة المركزية بالجزائر مقتل الباي عثمان وتشتتت قوته، عزم الداي مصطفى على خوض المعركة بنفسه ومواجهة ثورة ابن الاحرش والقضاء عليها، لكنه تراجع بعد إقناعه من طرف معاونيه بأنّ ذلك سيشكّل خطرا على حياته؛ فقام بإرسال الحاج علي آغا على رأس جيش برفقة باي قسنطينة الجديد عبد الله بن إسماعيل (1804-1806م) وكلّفه بملاحقة ابن الاحرش[49] قبل أن يفكر في إعادة الهجوم على قسنطينة من جديد.

3- مرحلة التراجع والانهزام: بدأت هذه المرحلة بوصول الباي الجديد عبد الله الذي استجاب لأوامر الداي مصطفى، فجنّد قوته العسكرية ووصلته المساعدات: "ثم كاتب عبد الله العرب أصهاره وجميع الرعية، واستقام له الأمر وساير كبراء العرب، واجتمع لديه أهل المخزن، ثم جهز محلة وخرج في طلب ابن الأحرش وضيّق عليه البلاد إلى أن هرب إلى الناحية الغربية"[50].

إن عدم اغتنام بن الأحرش فرصة مقتل الباي، وتشتت قواته بوادي الزهور "للقضاء على سلطة البايلك سمح لحكومة الدايات بإعادة تنظيم نفسها وإرسال الإمدادات إلى قسنطينة، وعزل ابن الأحرش عن أغلب القبائل التي ساندته أول الأمر بتقديم الهدايا لأعيان المدن والقبائل والزوايا بعد تزايد خطر ابن الأحرش ضدهم، كما أصدر الدايات مراسيم تعترف بمكانتهم ونفوذهم، وهو ما جعل الزوايا والأسر الكبيرة (الطريقة الرحمانية[51] وعائلة المقراني...) طرفا فعالا ومؤثرا في الأحداث ووسيلة فعالة في فرض نفوذ البايلك، إضافة إلى نفور سكان المدن من ابن الأحرش، إذ كانوا منغلقين على أنفسهم مترفعين عن أهالي الريف، الذين كانوا يرون في سكان المدن مساندين للعثمانيين[52].

أقام ابن الأحرش معسكره قرب مدينة سطيف فخرج الباي بجيش كبير والتقى الجمعان بنواحي ميلة[53]، ونجح في تشتيت شمله ثم لاحقه بجهات بجاية ثم بالرابطة بالقرب من سطيف، وبعد أن ناصبه أتباع الطريقة الرحمانية العداء وانضم الشيخ المقراني بفرسانه إلى جانب السلطة المركزية اضطر للانسحاب من الشمال القسنطيني[54]، فاختفى عن الأنظار وشاع بين الناس مقتله، فظهر داعية آخر ادعى أنّه ابن أخ

ابن الأحرش وسمى نفسه محمد بن عبد الله، ودعا الناس إلى الجهاد ضد السلطة الحاكمة لطردهم، واستمرت حركته مدة سنوات، ولم يتمكن جيش الباي من وضع حد لها إلا بعد مجهودات كبيرة [55].

وبعد تقهقر حركته بالشرق توجه ابن الأحرش إلى بايلك الغرب، وتحالف مع الشريف عبد القادر الدرقاوي[56]، وشارك معه في الغرب حيث يقول مسلم بن عبد القادر الجزائري: "كان قدوم ابن الأحرش على درقاوة من المشرق فازدادوا بقدومه فرحا وسرورا"[57]. واستمال قبائل الغرب فحاصر مدينة وهران سنة 1805/1820م، ألا أنّه فشل بسبب قوة جيش الباي مصطفى، وبعد سنتين من ذلك (1222ه/1807م) عاودوا الهجوم في عهد الباي "محمد المقلش"، وعقب وفاته عيّن مكانه الباي مصطفى مرة أخرى فعاود الدرقاويون ومعهم ابن الأحرش الهجوم على وهران لكنهم انهزموا، فسميت المعركة باسمه "يوم ابن الأحرش" بسبب موت جماعة من طلبة ابن الأحرش[58]؛ حيث يقول حسن خوجة: "ورجع الباي لوهران فرحا بالغنيمة العظيمة وقتله للعدو المقتلة الجسيمة فاستقر بها واستراح، وحصل له الطرب والانشراح، وبقي على ذلك أياما عديدة وليالي مديدة... ومستيقظا لأموره وليس بغافل ولا ناعس. إذ جاء الخبر بأنّ الدرقاوي بتافنة في جيش جديد، كأنّه البحر المديد أو الجراد المنتشر مغطيا للسهل والوعر، وهو الرجل المنفش المسمى بابن الأحرش ومعه أمة من الطلبة سالكين معه اقتحام العقبة"[59].

ويذكر أنّ ابن الأحرش قد قتله الشريف الدرقاوي[60] غيلة بعد أن رأى فيه منافسا قويا، وقد شاع عند العامة أنّ سلطان المغرب طلب نقل جثته إلى المغرب؛ فأجيب إلى ذلك ونقل ليدفن بمدينة فاس[61].

رابعا: نتائج وآثار ثورة ابن الأحرش: كان لثورة بن الأحرش آثار وخيمة انعكست على أوضاع البلاد بشكل كبير ويتمثل ذلك في:

- إضعاف نفوذ البيالك بالأرياف وازدياد عزلة المدن،كما شجعت القبائل على عدم دفع الضرائب، وهو ما يؤكد ناصر الدين سعيدوني حيث يقول: "في هذه الظروف المتأزمة اقتصاديا والمضطربة اجتماعيا، تحولت المدن الجزائرية إلى بيئات منكمشة على نفسها متخوفة من سكان الريف القريبين منها، كما غدا الريف الجزائري مجالا مغلقا على نفسه يكاد يفقد صلته بالمدن وينقطع تفاعله مع سكانها، فأصبح منكفئا على نفسه وغير مستعد للتعامل مع السلطة المركزية بعد أن تحول أغلب سكانه المؤطرين بشيوخ الزوايا إلى موقف عدائي صريح من إدارة البايليك والمتعاملين معها... في مثل هذه الأحوال أصبحت الظروف مهيأة في الجزائر لانهيار داخلي أو لوقوعها ضحية عدو خارجي، وبالفعل كان الغزو الفرنسي1830م"[62].

- انتشار الفوضى والاضطرابات في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وانعدام الأمن والاستقرار.

- إهمال الزراعة وتضرر السكان من قلة القوت، مما أدى إلى المجاعة وذكر عبد الرحمن الجيلالي أنّ الجزائر ما كادت تنتهي وتستريح من ويلات الحرب المحزنة حتى فاجأها الجدب والقحط بكامل البلاد، وأصبحت تعاني من أزمة مجاعة حادة وخانقة ارتفعت فيها الأسعار وغلا المعاش غلاء فاحشا، حتى بلغ يومئذ سعر الصاع

الجزائري وهو ما يزن 34 كيلو تقريبا من الشعير بخمسة عشر بوجا[63]، فمات الناس جوعا واستمر الحال على ذلك بضع سنين[64]، ويذكر العنتري أنه وقعت مجاعة شديدة في قسنطينة سنة 1219ه/1804م، وقد استمرت ثلاث سنوات متتابعة: "فحصلت للناس شدة ومجاعة، وقد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك... تشتتوا عن منازلهم، وتفرقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشر والمصائب التي حلت به من قبل من يبس الزرع وعدم الحرث ونزول القحط والفتن"[65].

وقد أدّت المجاعة إلى هلاك الكثير من الناس من بينهم العلماء كالفقيه عبد القادر السنوسي وبن زرفة [66]، واجتاح الجراد قسنطينة سنة 1219ه/1804م فأفسد الزرع والثمار[67].

وقد نظم الشاعر رحموني أبياتا تجسد وضع البلاد، حيث قال:

تخزمت رحالي للفتـــن التل يخلى ونزول منـــه الدخائر
وتصيـــر النخلة برخلة ولاشـــيء تخـــلى الجـــــزائر
الأسعار راهـــا اغلات وحتى أمطـــار الصـــيف ادفاقو
الحرث راه صعب نبته اليبـــس والحجـــر يكســـروا[68]

– دفع بعض الدعاة إلى التمرد وقد ظهر أحد قادته، وادّعى أنّه حفيد ابن الاحرش مدة أربع سنوات قبل أن يتم القضاء عليه هو الآخر[69].

خاتمة: وفي الختام يمكن القول إنّ ثورة ابن الأحرش أنهكت بايلك الشرق وسكانه، وبهذا لم تزد البلاد أمنا ورخاء، حيث زعزعت أمن البلاد لكنّها من جهة أخرى نجدها قد وحدت صفوف السكان المتذمرين من السياسة الحاكمة؛ فكانت منفذا للتعبير عن سخطهم على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية التي كانت تسود البلاد من جراء الحكم العثماني الفاسد خاصة سياسة الضرائب المجحفة، وبالرغم من أنّ هذه الثورة كانت تحمل شعارات دينية لهذا وجدت الكثيرين ممن يلتفون حولها. ضف إلى الدور الكبير الذي لعبته القوى الخارجية في تعزيز هذه الثورات ودعمها ماديا وما لقيته من تقبل السكان، وهو ما يفسر انتشار الثورات في أغلب جهات الوطن.

لكنّها فشلت في تحقيق أهدافه الرامية إلى الحد من تعسف الأتراك وظلمهم رغم الأساليب التي اعتمدها لكسب القبائل بالشرق الجزائري إلا أن تبنيه للطريقة الدرقاوية لم يمكنه من إيجاد أنصار أكثر ولاء له في الشرق الجزائري لأنّ أغلب سكانه ينتمون إلى الطريقة الرحمانية المهادنة للحكام العثمانيين.

لم تنجح ثورة ابن الأحرش في القضاء على الحكم العثماني في الجزائر إلا أنّها ساهمت في إضعافه.

الهوامش:

(1) طريقة صوفية مغربية متفرعة عن الشاذلية، وأول من دعا إليها هو الشريف ادريس في شمال الغربي من مدينة فاس، ويعتبر مولاي العربي الدرقاوي، يعتبر مؤسس الطريقة الدرقاوية ومنظمها ولد بتطوان 1738، إلا أنّها تنسب لأحد أسلافه هو أبو عبد الله بن يوسف

الملقب بأبي درقة، وأسس زاوية بفاس سرعان ما انتشر في المغرب الأقصى وغرب الجزائر، انخرطت بقوة في الحقل الديني، قبل أن تمزج ما بين السياسي والاجتماعي والروحي فقد قام أتباعها بالثورة ضد العثمانيين في الجزائرفي النصف الأول من القرن 13ه/19م.
موقع الأنترنت:http://nebrasselhaq.com ، محمد حاج عيسى،نبذة عن تاريخ الطّرق الصّوفية في الجزائر، 09 أكتوبر 2011، الساعة:06:44.

(2)أكبر البايلكات في الجزائر خلال العهد العثماني،بعد تقسيم الاداري سنة 1567 وعاصمته قسنطينة ثاني أكبر مدينة بعد الجزائر في العهد العثماني حيث يمتد من البحرالمتوسط في الشمال إلى ما وراء الصحراء جنوبا، ومن الشرق الحدودالتونسية من وادي سوف جنوبا مرورا بتبسة وصولا إلى طبرقة على الساحل المتوسطي شمالا، ومن الجهة الغربية جبال البيبان وقرى بني منصور، ومن الجنوب الغربي قرى سيدي هجرس وسيدي عيسى.ينظر:عائشة غطاس، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، دط منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.الجزائر، ص 210.

(3)نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988،ج2، ص169.--- (4)أبو عمران الشيخ وآخرون ،معجم مشاهير المغاربة،الجزائر،1995، ص25.---(5)نصر الدين سعيدوني :ثورة ابن الاحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية،في مجلة الثقافة، عدد78، 1983 ،الجزائر،ص 201.---(6)نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المرجع السابق،ج2، ص170

(7) صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، ط3، دار هومة، الجزائر،2011،ص194-195.---(8)أبو عمران الشيخ وآخرين، المرجع السابق، ص26.---(9)عزيز سامح ألتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة،محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت،1989، ص586.

(10)محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم،المهدي بوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص292.---(11)الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا، إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة :يحي بوعزيز، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ج1، 2000،ص299.

(12)صالح العنتري : مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974،ص29.---

(13)محمد الأمير، بن عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ط2،شرح وتعليق : ممدوح حقي، دار اليقضة العربية، بيروت، 1964،ص117

(14)الحاج أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار،نقيب أشراف الجزائر(1753-1830)،تقديم وتحقيق، أحمد توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص85.

(15) E.Vayssettes,Histoire des derniers bey de Constantine depuis1793jusqua la chute de Hadj-Ahmed,p71.

(16) الداي مصطفى بن ابراهيم ،تقلد الحكم بعد حسن باشا سنة 1212ه/1798م في عهد السلطان العثماني سليم الثالث، وهو من أشهر دايات الجزائر، أغتيل سنة 1805. ينظر:عبد القادر نور الدين، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم العصور إلى انتهاء العهد العثماني، ط1،مطبعة البعث، قسنطينة، 1965، ص117.

(17)أعلن الداي الحرب على فرنسا بمحاملة لمبعوث السلطان العثماني،والرأي العام الجزائري، بعد غزو نابليون بونابرت لمصر سنة 1798 م،وسجن القنصل الفرنسي وموظفي القنصلية، وبعض الرعايا الفرنسيين، وقدكان أسرهم خفيفا، حيث أطلق سراحهم بعد مغادرة المبعوث العثماني للجزائر، وعقد معاهدة سلم مع فرنسا في 17 ديسمبر 1801م . ينظر: جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830)، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1999، ص196.

(18) محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال 1830، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1972، ص29.

(19) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العشر إلى القرن الرابع عشر الهجري 16 من) -1620، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1981، ج1، ص221.

(20) ونجد جون وولف يعرفها بقوله :" إن القرصان هو الذي كان حرا في النهب ولا يعترف بأية سلطة فوق إرادته الخاصة فقد كان يهاجم بدون تمييز سفن أية دولة وكان هدفه الوحيد هو النهب" باتيست جون وولف: الجزائر وأوربا 1500–1830، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2005، ص43. وقد ميز اكزافي لابا (Xavier Labat) بين القرصنة واللصوصية حيث تطلق على الأولى إذا كانت تحت غطاء الدولة، وإذا لم تكن كذلك فهي خروج عن القانون وهنا تطلق على هذه العملية باللصوصية. ينظر:

Xavier Labat Saint-Vincent: La course et le corso en Méditerranée du XVIe au XIXe siècle,cahiers de la mediterranée,n 79,2009,p1.

(21) نصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792–1830، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص121.

(22) عمار هلال، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830–1962)، د.ط،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص25.

(23) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص138.---(24) محمد صالح بن العنتري،فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها(تاريخ قسنطينة)، مراجعة وتقديم،يحي بوعزيز،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،ص130.

(25) محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص292.---- (26)عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص584.

(27) تجدر الإشارة هنا إلى أن الجالية اليهودية، كان لها دور مهم في اقتصاد البلاد وحصلت على مكانة من قبل العثمانيين، فكانت منها العائلات الموسرة، التي جمعت ثروات ضخمة من عمل السمسرة، والمراباة والقيام بدور الوساطة في العمليات التجارية؛ ما أدّى إلى احتقار ونقمة السكان، والتي تحولت إلى ثورات انتقامية كثورة سنة 1220 ه 1805م، التي انتهت بمذبحة لم يسبق لها مثال طوال العهد العثماني في الجزائر، حيث قتل حوالي مائة من اليهود ونهبت أموالهم وأرزاقهم. ينظر: لمنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني للقرصنة، الأساطير والواقع، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ج1، ص389.

(28) شريط عبد الله الميلي محمد أمبارك : مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 م، ص163.

(29) الآغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص300.---(30) المصدر نفسه، ص299.---(31) حمدان خوجة، المرآة، تعليق وتعريب، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985، ص28.

(32) FERAUD Ch, Zebouchi et Osman bey, Revue africaine .vol °6, 1862. p217.

(33) صالح عباد، المرجع السابق، ص197.---(34) نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج2، المرجع السابق، ص173.

(35) أبو عمران الشيخ وآخرون، المرجع السابق، ص26.

(36) BERBRUGGER Adrian,Un chérif Kabylie en 1804, revue africaine.vol3. 1858. P.211.

(37) صالح عباد، المرجع السابق، ص198.--- (38) محمد صالح بن العنتري، مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 30.

(39) De Grammont(H.D), Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830).Ed. Leroux. Paris, 1887, p.363.

(40) محمد صالح بن العنتري،فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (تاريخ قسنطينة)، مراجعة وتقديم، يحي بوعزيز،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،ص70.

(41) DE GRAMMONT, Op.Cit, p363.

(42) نصر الدين سعيدوني : ثورة ابن الاحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية، المقال السابق، ص 205.

(43) محمد صالح بن العنتري، مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص ص30-31. ---(44) صالح عباد: المرجع السابق، ص198.

(45) الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص86.---(46) الآغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص300.---(47) محمد صالح بن العنتري، فريدة منسية، المصدر السابق، ص71.

(48) FERAUD, Op.cit. p.123.

(49) محمد بن عبد القادر مسلم، أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم، رابح بونار، الشركة الوطنية للتوزيع، 1974، ص118.

(50) الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص87.

(51) طريقة صوفية، تفرعت عن الخلواتية، وتنسب إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان القشتولي الجرجري الأزهري، انتقل آباؤه قديما من المغرب الأقصى إلى بلاد القبائل واستقروا هناك داخل حلف قشتولة أ قحطولة في زواوة، ولد 1133ه/1721، استقر في بجاية فترة قصيرة كواعظ ومرشد في مسجد سيدي محمد أمقران، ثم انتقل إلى قرية الحامة قرب الجزائر العاصمة، واستقر هناك، وأهدى له أفراد عائلة بني عيسى قطعة أرض بنى عليها زاويته، و لم يمض نصف عام حتى وقعت المناظرة بينه وبين علماء المدينة، مما جعله يغادر الحامة باتجاه جرجرة ويؤسس زاوية أخرى بمسقط رأسه آيت إسماعيل ببلاد القبائل.يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1995، ص143.

(52) نصر الدين سعيدوني، المقال السابق، ثورة بن الأحرش، ص ص 218-219.---(53) DE GRAMMONT, Op.cit, p366.

(54) أبو عمران الشيخ وآخرون، المرجع السابق،ص27--- (55)نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المرجع السابق،ص181.

(56) Adrien Delpech,Resume historique surle soulevement des Derkaoua de la province d'Oran.Revu africain ,vol18. 1874.P41.

(57) محمد بن عبد القادر مسلم، المصدر السابق، ص103.--- (58) Adrien Delpech, Op.cit, pp45-57.

(59) بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم، المهدي بوعبدلي، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1982، ص44.---(60) الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص87.---(61)نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص182.---(62)نصر الدين سعيدوني :عصر الأمير عبد القادر الجزائري، ط1، مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000 ،ص 12.---(63) البوجو أو البجة تساوي 3,13 فرنك ذهبي. ينظر أحمد توفيق المدني،محمد بن عثمان باشا ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص105.

(64) عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، 1980، ج3، ص261.---(65) محمد صالح بن العنتري، مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص34---(66) عبد القادر نور الدين، المرجع السابق، ص86---(67) محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص24.---(68)نصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص195.---(69) صالح عباد، المرجع السابق، ص200.

Abstract:

In the late 18th century and beginning of the 19th century, Algeria had wittnessed dire and difficult economic and social situations, which resulted in a growing disenchantement among population against the ruling Ottoman power. This situation was well exploited by religious movements in Algeria. In fact taking advantage of their popularity and influence among the population, they declare a rebellion on the Ottoman power and establish an Islamic government. Rural areas in Constantine represented well this phenomenon through the emergence of Ibn Alahrach movement which was in fact inspired from the prestigious and well famous Sufi Darquaoui movement, which was used later as a political cover in order to topple the Ottoman regime in Algeria. Ibn Alahrach movement has benefited from several favorable conditions. In fact, international and local causes were all in favor of this leader, who announced his revolution from Beylik in the east to spread latter to include Jijel and Collo and Mila, the tribes of the Grand valley and Rwagha mountains, Valley of Flowers and other rural areas of Constantine, He also had the support of mourabitoun leaders which gave his movement strength and respect among population which resulted in many victories, He finished by forming a parallel government to the Turks in rural areas of Constantine. Despite his attempt to break into Constantine after a long siege, he failed and was defeated by Al BEY who forced him to head westward joining Sharif Derkaoui, who killed him latter.